فلسفة الحضارة الأوروبية
ليست روحية ولا إنسانية

للدكتور سليمان حزين

مدير جامعة أسيوط

نحن نعرف أن أوربا الحديثة ، فى عهد النهضة كانت قدبدأت تضع لنفسها فلسفة جديدة فى الحياة ، وكان مفكروها ورجال الفكر فيها قد بدءوا يتأملون تاريخ الانسانية ، ويحاولون فى الوقت نفسه أن يجدوا لقارتهم الصغيرة ولشعوبها المتطاحنة مكانا تحت الشمس بين القارات والشعوب الأخرى ، بل مكانا فى تاريخ الانسانية تبرز فيه قارة أوربا رغم صغرها ، ويبرز الدور الذى لعبته شعوبها رغم حداثة عهدها وعهدهم بالحضارة البشرية .

وكان أولئك المفكرون فى عهد النهضة الأوربية قد شعروا بمركب النقص ، الذى يرجع إلى أن قارتهم صغيرة ، تقع فى ركن من أركان العالم ، بعيدا عن وسط العالم القديم ، ذى الحضارة والمدنية العريقة ، بل كان أولئك المفكرون ، قد أحسوا بمركب النقص لأن قارتهم لم تشارك فى تاريخ الحضارة البشرية وبناء التراث الانسانى ، إلا مشاركة ضعيفة جدا ، ومتأخرة جدا ، حتى لكأن أوربا كانت تعيش من الناحية الحضارية ، عالة على غيرها من القارات ، وكانت شعوبها المستضعفة فى العصور القديمة والقرون الوسطى ، تعيش على ما يلقى إليها ، أو يتسرب نحوها من فضلة الحضارة أو بصيص النور الذى يخرج من المركز التقليدى للحضارة الانسانية فى الشرق الادنى ، ليجد سبيله بعد لأى وعناء كثير الى داخلية أوربا وأطرافها الشمالية الغربية .

قرأ فلاسفة أوربا ومفكروها فى عهد النهضة الأول ، وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تاريخ الانسانية فوجدوه حافلا بالحضارة والحكمة ، التى نشأت فى الشرق الأدنى ، وحوض البحر المتوسط ، وفى بلاد الهند أو بلاد الصين ، ولكنهم لم يقرءوا شيئا عن الحضارة فى أوربا ، الا ما نشأ منها فى جنوب تلك القارة ، متأثرا بحضاره الشرق القريب فى آسيا وافريقية ، ثم نظر أولئك الفلاسفة والمفكرون

الأوربيون ، إلى حياتهم فى عهد النهضة الاوربية الحديثة فوجدوا أن مظاهر الحكمة كأصولها واضواءها التى بدأت تنير الغرب ، انما ظهرت كلها فى بلاد المشرق ، فأما العلم والفكر الحديث فقد بدأ فى بلاد اليونان ولكنه كان على كل حاو متأثرا أبلغ التأثر بالحكمة السابقه ، فى مصر والشرق القريب ، وأما الناحية الروحية والدينية التى غلبت على أوربا ، فقد نشأت كلها مع المسيحيه ، فى الشرق مهبط الوحى ، ومن هناك انتشرت المسيحية إلى جنوب أوربا ، فلاقت من العناء أشده ، ومن الاضطهاد أعنفه ، ومن الأهوال أعظمها وأقساها حتى أذن الله للمسيحية ولنور الشرق أن يغلب وأن ينتشر ولكن هذا التاريخ الذى عرفه فلاسفة أوربا وحكماؤها فى عهد النهضة الحديثة ، وماجاء فى أعقابها قد أوقع فى نفوسهم شيئا من الشعور بأن أوربا لم يكن لها نصيب « ظاهر » فى تاريخ الفكر الانسانى ، وان ما أصابته من هذا الفكر فى العهود اللاحقة انما جاء مستعار من الشرق ، ولقد كان أولئك الحكماء والفلاسفة الاوربيون بشرا من الناس ، فأحسوا بشىء من الحقد والغيرة ، وتكشفت نفوسهم عن غير قليل من مركب النقص وكأنى بهم قد أرادوا أن يتشفوا لهذا الماضى ، وأن يلبسوا أوربا ثوبا من القوة يزيل عنها الشعور بالنقص ، ويعوضها من ذلك عظمة الكبرياء الظاهرى ، والتعالى على غير أساس ، وقد انعكست صورة ذلك كله فيما كتبه بعض أولئك الحكماء والفلاسفة ، اجتزىء منه فقرة كتبها المفكر المعروف « منتسكيو » فى كتابه الذى ذاع صيته ، وعرف بأنه أساس من أسس الفكر الاوربى الحديث ، شريعة من الشرائع التى تفتق عنها ذلك الفكر الاوربى لترسم طريق المعاملات بين الشعوب والأمم ، ألا وهو كتاب « روح القوانين » فقد جاء فى أحد فصول ذلك الكتاب نص لا اقرأه الا شعرت أن وراءه مركب النقص ، الذى ينطوى على غير قليل ، من الحقد الدفين والتشفى الظاهر ، وهذا النص هو : « إذا كان على إن ادافع عن حقنا المكتسب فى أتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيدا ، فاننى أقول ان شعوب أوربا ، وقد افنت سكان ، أمريكا الأصليين ، لم يكن أمامها ، الا أن تستعبد شعوب افريقية ، لكى تستخدمها فى استصلاح ارجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب افريقية الا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء الى درجة يكاد من المستحيل أن نرثى لها ، وحاشا لله

ذى الحكومة البائنة أن يكون قد أودع روحا — أو على الأخص روحا طيبة — فى جسد حالك السواد » .

فى هذا النص ، وفى هذه الصيغة البشعة من الفكر الأنانى الضيق ، صاغ هذا المفكر الأوربى ما جال بخاطره من فكر يتصل بفلسفه الاستعمار ، وكأنى به قد أراد أن يعتذر عن خطيئة أبناء أوربا الذين عملوا على ابادة الهنود الحمر فى امريكا الشمالية ، ليحلوا محلهم فى أرض تلك القارة . . . أراد أن يعتذر عن ذلك ، فأورد عذرا هو أقبح من الذنب ، وكأنى به قد أراد أن يبرر استعباد الاوربيين لزنوج افريقيه ، حين نقلوا بضعة ملايين منهم من القارة الافريقية ليستخدموهم عبيدا فى تعمير اراضى هذه القارة الجديدة ، ونيا فيها الواسعة ، فاعتذر بأن ذلك كان أمرا ضروريا ، بعد أن أعمل الاوربيون فى أمريكا الشمالية وسائل التقتيل والافناء فى سكان القارة الأصليين ، فكأن أوربا التى أحالت الاستعمار إلى معارك للافناء بالنسبة لسكان أمريكا من الهنود الحمر ، لم تر بدا من أن تنقل زنوج افريقية بالجملة ، لتسخرهم عبيداً فى فلاحة الأرض التى أهلك الاستعمار سكانها الأصليين ، الشىء الغريب أن هذا اللون الخطير من الفكر الذى هو أبعد ما يكون عن الرحمة الإنسانية ، أو عن الوازع الإنسانى الذى ينبع من الضمير . . ، هذا اللون من الفكر لم يكن مقصورا على مفكرى أوربا وفلاسفتها ، وإنما أمتد منهم إلى بعض رجال الدين فى أوروبا فى ذلك العهد ، فبعض أولئك الرجال لم يتورعوا ، مع الأسف الشديد ، عن الأنزلاق فى تيار مثل ذلك الذى سار فيه منتسكيو . ومن المتواتر فى بعض الكتب التى تستعرض الاستعمار الأول أن نفرا من أولئك الذين كانوا يتصدون بغير حق إلى قيادة حركة الاستعمار والتوسع باسم الدين ، كانوا يصفون الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان ، بل كانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل ، ومن ذلك نشر الأمراض الجديدة ونقل عدواها إلى أولئك الهنود الحمر ، فتحصدهم أو بثتها ، وتطهر البلاد منهم فى غير شفقة ولا رحمة ! . .

ذلك لون من الفكر الأوربى الذى ظهر فى القرون التى تلت عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وهو لون لم تعهد الإنسانية له شبيها من قبل اللهم إلا فى بعض عهود الدمار القليلة كعهد التتر المغول ، وما أبعد هذه الروح التى اتصف بها الفكر الأوربى ، عن روح الشرق ، التى اتسمت دائماً بالخير والرحمة ، والعدالة والأخاء .